مريم عليها السلام

قصص النساء في القرآن

[12] مريم عليها السلام

وقد ورد ذكرها في مواطن منها قوله تعالى:{وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [آل عمران: ٤٢ - ٤٤].

***

موجز القصة:

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: قال الله تعالى في سورة آل عمران التي أنزل صدرها، وهو ثلاث وثمانون آية؛ منها في الرد على النصارى عليهم لعائن الله تعالى الذين زعموا أن لله تعالى ولدًا، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

وكان قد قدم وفد نجران منهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث في الأقانيم، ويدعون بزعمهم أن الله تعالى ثالث ثلاثة، وهم الذات المقدسة وعيسى ومريم على اختلاف فرقهم.

فأنزل الله عز وجل صدر هذه السورة بين فيها أن عيسى عبد من عباد الله، خلقه وصوره في الرحم كما صور غيره من المخلوقات، وأنه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم، وقال له كن فكان.

وبين أصل ميلاد أمه مريم وكيف كان من أمرها، وكيف

حملت بولدها عيسى، وبسط ذلك في سورة مريم؛ فقال تعالى:{إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾} [آل عمران: ٣٣ - ٣٧].

يذكر الله تعالى أنه اصطفي آدم عليه السلام والخلص من ذريته، المتبعين شرعه الملازمين طاعته، ثم خصص وقال:{وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ}؛ فدخل فيهم بنو إسماعيل وبنو إسحاق.

ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب؛ وهم آل عمران، والمراد بعمران هذا ولد مريم عليها السلام، وقال محمد بن إسحاق: وهو عمران بن باشم بن آمون بن منسا بن حزقيا بن أخريق بن موثم بن عزاريا بن أمصيا بن ياوش بن أحزيهو بن يازم بن يهفشاط بن أيشا بن أيان بن رحبعام بن سبيمان بن داود.

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أن أم مريم كانت لا تحبل، فرأت يومًا طائرًا يزق فرخًا له، فاشتهت الولد؛ فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محررًا؛ أي: حبيسًا في خدمة بيت المقدس.

قالوا: فحاضت من فورها؛ فلما طهرت واقعها بعلها فحملت بمريم عليها السلام{ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ

ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ } [آل عمران: ٣٦]؛{وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ}؛ أي: في خدمة بيت المقدس، وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خدامًا من أولادهم.

ولما وضعت أم مريم عليها السلام مريم لفتها في خرقة ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العباد الذين هم مقيمون به، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها.

وقد تكفلها زكريا عليه السلام، واتخذ لها مكانًا شريفًا من المسجد لا يدخله سواها؛ فكانت تعبد الله فيه، ونقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها في بني إسرائيل، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة، حتى إنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها، يجد عندها رزقًا غريبًا في غير أوانه؛ فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها:{أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا} [آل عمران: ٣٧]. فتقول:{هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ}
[آل عمران: ٣٧]؛ أي: رزق رزقنيه الله تعالى{إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ} [آل عمران: ٣٧].

{وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ} [آل عمران: ٤٢]؛ أي: اذكر وقت قول الملائكة؛ أي: جبريل يا مريم إن الله اختارك من بين سائر النساء فخصَّكِ بالكرامات{وَطَهَّرَكِ} من الأدناس والأقذار ومما اتهمكِ به اليهود من الفاحشة{وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ} [آل عمران: ٤٢]؛ أي: اختارك على سائر نساء العالمين لتكوني مظهر قدرة الله في إنجاب ولد بدون أب.

{ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ} [آل عمران: ٤٣]؛ أي: الزمي عبادته وطاعته شكراً على اصطفائه{وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ } [آل عمران: ٤٣]؛ أي: صلي لله تعالى مع المصلين{ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ } [آل عمران: ٤٤]؛ أي: هذا الذي قصصناه عليك من قصة امرأة عمران وابنتها مريم البتول ومن قصة زكريا ويحيى إنما هو من الأنباء المغيبة والأخبار الهامة التي أوحينا بها إليك يا محمد ما كنت تعلمها من قبل {وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ} [آل عمران: ٤٤]؛ أي: ما كنت عندهم إذا يختصمون ويتنافسون على كفالة مريم حين ألقوا سهامهم للقرعة كلٌ يريدها في كنفه ورعايته{وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ } [آل عمران: ٤٤]؛ أي: يتنازعون فيمن يكفلها منهم، والغرض أن هذه الأخبار كانت وحياً من عند الله العليم الخبير.

{ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۗ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ } [آل عمران: ٤٥ - ٥١].

{ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ } [آل عمران: ٤٥]؛

أي: بمولودٍ يحصل بكلمة من الله بلا واسطة أب{ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ} [آل عمران: ٤٥]؛ أي: اسمه عيسى ولقبه المسيح، ونسبَه إلى أمه تنبيهاً على أنها تلده بلا أب{وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ} [آل عمران: ٤٥]؛ أي: سيداً ومعظماً فيهما{وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ} [آل عمران: ٤٥]، عند الله تعالى: {وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا} [آل عمران: ٤٦]؛ أي: طفلاً قبل وقت الكلام ويكلمهم كهلاً.

قال الزمخشري: " ومعناه يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوتٍ بين حال الطفولة وحال الكهولة "؛ ولا شك أن ذلك غاية في الإعجاز{وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ} [آل عمران: ٤٦]؛ أي: وهو من الكاملين في التقى والصلاح.

جاء في مسند أحمد والصحيحين، وجامع الأصول (ج 10 / 310) عن أبي هريرة ☺ قال:**"لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم وصاحب جريج، وبينما صبي يرضع من أمه... -.**

فنص هذا الحديث الشريف على أن الذين تكلموا في المهد هم:

الأول: عيسى ابن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام؛ قال الله تعالى في كتابه:{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾} [مريم: ٢٩ - ٣٠].

الثاني: صاحب جريرج؛ وجريج عابد، ولكنه ليس بفقيه فعرض نفسه إلى محنة في هذه الحياة ولطف الله تعالى به، وكان جريج رجلاً عابدًا فأخذ صومعة يتعبد فيها فجاءته أمه ونادت عليه وقالت: يا جريج فقال يا رب أمي وصلاتي؟ فأقبل على صلاته ثم نادت عليه مرة ثانية في الغد ففعل كما فعل في المرة الأولى ثم نادت عليه

الثلاثة في بعد غد ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى والثانية فقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه الميامیس كما جاء ذلك صريحًا في البخاري (والميامیس: الزانيات).

فتذاكر بنو إسرائيل جريجًا وعبادته وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها (أي: تفتن الناس) فقالت: إن شئتم لأفتننه؛ فتعرضت له فلم يلتفت إليها، فأتت راعي كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت منه فلما ولدت قالت: هو من جريج؛ فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وضربوه، فقال: ما شانكم؟ قالوا: زنيت بهذه البغي فولدت منك، فقال: أين الصبي فاتوا به، ثم قال: دعوني أصلي وبعد أن انتهى طعن الصبي في بطنه وقال له: يا غلام من أبوك قال: فلان الراعي، فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به (تبركًا) وقالوا: نبني صومعتك من ذهب قال: لا، أعيدوها من لبن كما كانت ففعلوا.

الثالث: وبينما صبي يرضع من أمه؛ فمر رجلاً راكبًا على دابة فارهة وشارة حسنة فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا (هذا هو حال من يريدون الآخرة) فترك الثدي وأقبل إليه (أي: الراكب) فنظر إليه وقال: اللهم لا تجعلني مثله ثم أقبل إلى ثدي أمه يرضع (قال أبو هريرة ☺ : كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحكي ارتضاعه يضع السبابة في فمه) ثم مرت الأم ومعها رضيعها بجارية وهم يضربونها ويقولن لها: زنيت سرقت وهي تقول حسبنا الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها؛ فترك الثدي وأقبل إلى الجارية ونظر إليها وقال: اللهم اجعلني مثلها، فقالت أمه: حمقى؛ فقال: إن ذلك الرجل كان جبارًا، وان هذه يقولون لها: زنيت،

سرقت، وهي لم تزن ولم تسرق.

قال علماؤنا: وهناك أصناف آخرين تكلموا في المهد غير هؤلاء الثلاثة.

فقد ثبت في مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم والحديث صححه واقره عليه الذهبي وراواه البزار في المسند عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لما كانت ليلة أسري بي أتيت على رائحة طيبة فقلت: ما هذه الرائحة الطيبة يا جبريل؟ قال: هذه رائحة ما شطةِ ابنةِ فرعون؛ فقال صلى الله عليه وسلم : وما حالها؟

فقال جبريل: كانت تسرح لبنت فرعون فوقع المشط، فقالت: باسم الله؛ فقالت بنت فرعون: أتقصدين أبي؟ فقالت: لا، وإنما ربي وربك ورب أبيك الله، قالت: أخبر ولدي بذلك؟ قالت لها: أخبريه؛ فأخبرته فدعاها، وقال لها: وهل لك ربي غيري؟ قالت: نعم ربي وربك ورب كل شيء هو الله، فتهددها إن لم ترجع عن ذلك ليقتلها، فقالت: افعل ما بدا لك، فجمعها هي وأولادها وحمى بقرة من نحاس (وتطلق أيضا نقرة) ثم أتى بأولادها يلقيهم واحد تلو الآخر؛ فكل واحد كان يقع في هذا القدر المحمى مات فورًا ثم ما بقيت إلا هي وصبي لها ترضعه، فلما قربت هي وابنها من هذه البقرة كأنها تقاسعت من أجل الشفقة على ولدها، فقال لها هذا الغلام: يا أماه إنك على الحق فاصبري؛ فهذه الرائحة الطيبة هي رائحة ما شطة بنت فرعون وابنها رحمها الله تعالى برحمته الواسعة.

جاء في المستدرك (ج 8 / 595) بسند صحيح على شرط الشيخين عن

عبد الله ابن عباس ☺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**"تكلم في المهد أربعة؛ عيسى ابن مريم، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة ابنة فرعون** - رواه الحاكم.

قال الحافظ رحمه الله تعالى في الفتح: اجتمع من هذين الحديثين أن الذين تكلموا في المهد خمسة، وكذلك قال بذلك الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (ج 6 / 136).

جاء في صحيح مسلم عن سهيل الرومي في قصة الملك الذي كان عنده ساحر، والخلاصة أن هذا الملك لما آمن الناس بالله تعالى حفر لهم أخاديد وأشعل فيها النار، فكل من لم يرجع عن دين الله تعالى كان يلقيه في هذا الأخدود، ومن جملة هؤلاء امرأة وكان معها صبيها فتقاعست فقال لها ابنها: قعي ولا تقاعسي فإنك على الحق.

السابع: قيل إنه نبي الله تعالى يحيى؛ روى هنا الثعلبي في تفسيره كما في فتح الباري (6 / 480) عن الضحاك.

الثامن: وأشار البغوي في تفسير السنة أن الذي تكلم في المهد هو إبراهيم عليه السلام.

التاسع: روى الواقدي في المغازي أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم في المهد عند ولادته.

العاشر: مبارك اليمامة ولا يعلم باسمه، لما شهد النبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة في حجة الوداع روى عنه البيهقي في دلائل النبوة (ج 6 / 60)، والخطيب في الفقيه وابن قانه في الإصابة (ج 3 / 454) عن معوض بن معيقل اليماني قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وهو في مكة المكرمة فرأيت وجهه

يبرق سرورًا أبيضًا من القمر فدخل رجل من أهل اليمامة عنده ولد صغير لفه في خرقة أتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له:"**يا غلام من أنا؟** قال: أنت محمد رسول الله، فسمي بمبارك اليمامة.

قال ابن كثير في البداية والنهاية (ج 6 / 185) معلقًا على هذا الأثر هذا حديث غريب جدًا، وليس هذا مما ينكر عقلاً ولا شرعًا؛ فقد ثبت في الصحيح قصة صاحب جريج.

قال علماؤنا حفظهم الله تعالى: الثلاثة الذين ذكروا في الحديث لهم ميزه على الآخرين أو أن هؤلاء (الذين ذكروا أنهم تكلموا في المهد غير الثلاثة) من جملة من تكلموا. والله تعالى أعلم.

نرجع إلى القصة:{قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ} [آل عمران: ٤٧]؛ أي: كيف يأتيني الولد وأنا لست بذات زوج؟{قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ} [آل عمران: ٤٧]؛ أي: هكذا أمر الله تعالى عظيم لا يعجزه شيء يخلق بسببٍ من الوالدين وبغير سبب{إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ} [آل عمران: ٤٧]؛ أي: إذا أراد شيئاً حصل من غير تأخرٍ ولا حاجةٍ إلى سبب، يقول له كن فيكون{وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ}؛ أي: الكتابة{وَٱلْحِكْمَةَ}؛ أي: السداد في القول والعمل أو سنن الأنبياء {وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ}؛ أي: ويجعله يحفظ التوراة والإنجيل، قال ابن كثير: وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا.

{وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ} [آل عمران: ٤٩]؛ أي: ويرسله رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً لهم{أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} [آل عمران: ٤٩]؛ أي: بأني قد جئتكم بعلامةٍ تدل على صدقي وهي ما أيدني الله به

من المعجزات، وآيةٌ صدقي{أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ} [آل عمران: ٤٩]؛ أي: أصوّر لكم من الطين مثل صورة الطير{فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ} [آل عمران: ٤٩]؛ أي: أنفخ في تلك الصورة فتصبح طيراً بإذن الله.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وكذلك كان يفعل، يصوّر من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله، وهذه المعجزة الأولى{وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ} [آل عمران: ٤٩]؛ أي: أشفي الذي ولد أعمى كما أشفي المصاب بالبرص، وهذه المعجزة الثانية{وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ} [آل عمران: ٤٩]؛ أي: أحيي بعض الموتى لا بقدرتي ولكن بمشيئة الله وقدرته، وقد أحيا أربعة أنفس: عاذر، وكان صديقاً له، وابن العجوز، وبنت العاشر، وسام بن نوح هكذا ذكر القرطبي وغيره، وكرر لفظ " بإذن الله " دفعاً لتوهم الألوهية، وهذه المعجزة الثالثة.

{وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡ} [آل عمران: ٤٩]؛ أي: وأخبركم بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكُّون فيها؛ فكان يخبر الشخص بما أكل وما ادخر في بيته، وهذه هي المعجزة الرابعة{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ} [آل عمران: ٤٩]؛ أي: فيما أتيتكم به من المعجزات علامة واضحة تدل على صدقي إن كنتم مصدّقين بآيات الله تعالى، ثم أخبرهم أنه جاء مؤيداً لرسالة موسى عليه السلام، فقال: {وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ} [آل عمران: ٥٠]؛ أي: وجئتكم مصدقاً لرسالة موسى، مؤيداً لما جاء به في التوراة{وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ} [آل عمران: ٥٠]؛ أي: ولأحلّ لكم بعض ما كان

محرماً عليكم في شريعة موسى.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وفيه دليل على أن عيسى نسخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح.

{وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} [آل عمران: ٥٠]؛ أي: جئتكم بعلامة شاهدة على صحة رسالتي وهي ما أيدني الله به من المعجزات{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ } [آل عمران: ٥٠]؛ أي: خافوا الله وأطيعوا أمري{ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ} [آل عمران: ٥١]؛ أي: أنا وأنتم سواء في العبودية له جلَّ وعلا{هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ } [آل عمران: ٥١]؛ أي: فإن تقوى الله وعبادته، والإقرار بوحدانيته هو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

استطراد إلى قصة مريم وتبيين أن مقامها عند هز الجذع ليس أقل من مقامها في الغرفة:

قال علماؤنا: وهنا نكتة شريفة يجب الاعتبار بها في قصة مريم عليها السلام عند هز الجذع، وهي معضودة بقصة أيوب عليه السلام في بركة ركضه وبركات بعض الأنبياء فيما لمسوه وركضوه وضربوه؛ وذلك أن معظم أهل الإشارة رحمهم الله أصفقوا على أن مريم عليها السلام كان مقامها في الغرفة أعلى مما كان عند النخلة؛ واستدلوا على ذلك بما جاء في الخبر عن الرزق الذي كان يجد عندها زكريا عليه السلام إذا كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء فكان يأتيها بلا سبب، فلما نظرت إلى عيسى عليه السلام حين ولدته أحبته فأمرت بالكسب في هز النخلة لكونها رجعت من جمع إلى تفريق.

وقالوا في هذا وأطنبوا وأنشدوا الأبيات المشهورة على قافية الباء

إلى غير ذلك وهذه رحمهم الله وهلة منهم وغفلة عن الأولى والأحرى في حق تلك الصديقة، وأول ما يعترض به عليهم أن يقال لهم من أين يحكمون عليها أنها لما رأت الولد تفرقت بميل قلبها إليه.

وهذا لا يصح إلا بتوقيف والتوقيف في ذلك معدوم وبمن تردون على من يدعي نقيض دعواكم، ويبرهن عن ذلك أن مريم عليها السلام ما كانت قط في مقام هو أعلى من مقامها في تلك الأزمة على تلك الحالة وعلى قدر الأزمات يأتي الفرج وذلك أنها قبضت في ذلك المقام من سبعة أوجه.

أولا: أن خاطبها الملك على ضعفها وصغر سنها ووحدتها في الفلاة وهذا أمر لا يتخيل ما يكون فيه إلا من دهمه.

ثانيًا: أنه كان أول خطاب خوطبت به، وقد جاء في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خاطبه الملك في أول مرة كاد أن يتردى من حالق الجبل خيفة من فجأة الملك وفجأة الخطاب، وكان عليه السلام في ثاني حال يأتيه الوحي في اليوم الشديد البرد فيتفصد عرقا هيبة من فجأة الوحي وإعظاما للملك.

ثالثًا: أنه أخبرها بأنها تلد من غير فحل، وهذا مما يعظم سماعه لكونه غير معتاد لا سيما لمثلها.

رابعًا: طريان المخاض عليها وآلامه التي توازي آلام الموت لا سيما أول مخاض.

خامسًا: وهو أشد عليها من كل ما وقع؛ وهو ما يصمها الناس به من الملامة والأذية وإقامة الحد عليها وهي بريئة.

سادسًا: وهو أشد عليها من أذيتها وهو ما يلحق قومها من الناس

إذا قذفوها فإنها صديقة بشاهد القرآن والصديق أشفق على خلق الله مما هو على نفسه.

سابعًا: فيما يكون عذرها إذا اعترضت وأنكر عليها ما جاءت به.

فهذه سبع قوابض لو سلط أحدها على جبل لتصدع، ويكفيك قولها عند ذلك يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا؛ فأي مقام فوق مقام من ابتلي بمثل هذه المعضلات دفعة واحدة فصبر وشكر، ويعضد ما قلناه في علو مقامها في ذلك الحال قوله تعالى{ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾} [آل عمران: ٣٧].

وذلك أن زكريا عليه السلام كان يجد عندها تلك الفواكه المذكورة في غير أوانها فيقول أنى لك هذا يعني بأي عمل بلغت هذا المقام كان عليه السلام يستعظم ذلك المقام في حقها لغرارتها وضعفها، فتقول هي: هو من عند الله؛ أي ليس ذلك مقاما بلغته بكبير عمل، وإنما هو من فضل الله تعالى؛ فكأن ما تشير إليه أنتم عظماء لكم المقامات والأحوال وأنا ضئيلة ضعيفة فأنتم ترزقون بسبب وأنا بغير سبب؛ ففي قول زكريا عليه السلام{أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا} دليل على ضعف مقامها في الغرفة؛ فإن المقامات عند القوم مرتبطة بعلوم مخصوصة وأعمال مخصوصة، وكذلك الأحوال والكرامات أيضا هبة من الله تعالى لهم على قدر مقاماتهم؛ فلما كان ذلك غاية قبضها وعلاء مقامها في القبض بسطت من سبعة أوجه:

أولا: أن كلمها الوليد؛ قال تعالى:{فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ

رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾} [مريم: ٢٤]، قرئ بفتح الميم؛ فقال قوم: ناداها الملك من مكان منخفض عنهما، وقال آخرون: ناداها الوليد وهو الأظهر لوجهين:

الأول: أن تحت في حق الوليد أمت.

الثاني: أن تكليم الوليد آنس في الخطاب من كلام الملك على ما تقدم.

ثانيًا: أن كلمها وليدها ولم يكلمها وليد غيرها؛ لأن تكليم ولدها من بركات أحوالها

ثالثًا: أن كلمها في الحين فإن فيه تنفيس خناق قبضها بسرعة البشارة.

رابعًا: أن كلمها بالبشارة ألا تحزني.

خامسًا: أن أخبرها أنه سري؛ أي: رفيع القدر عند الله تعالى، وما يحب أحد أن يكون غيره أحسن منه إلا ولده.

سادسًا: أنه لما كلمها الوليد استبشرت بأنه سيقيم حجتها عند قومها كالذي فعل.

سابعًا: وهي البشارة العظمى التي تثبت أن مقامها عند الجذع كان أعلى من مقامها في الغرفة وهو قوله تعالى لها:{وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾} [مريم: ٢٥]، وتتصور الكرامة في هزها من أحد عشر وجها:

الأول: أنه نبهها على بركة يدها بأن تمس الشيء فيظهر عليه بركة ذلك المس كما جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله تعالى

عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها، وكما قيل:

لو مس عودا سلوبا لاكتسى ورقا ::: ولو دعا ميتا في القبر لباه

الثاني: أن الملموس كان جذعا، والجذع في اللسان هو ساق النخلة إذا جذ رأسها، يقول العرب: على كم جذع بيتك مبني، وجاء في الخبر فحن الجذع إليه وكانت أسطوانة في المسجد النبوي؛ وقال تعالى: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه: ٧١]، ولا يكون الصلب إلا في الخشب؛ فصح أن ساق النخلة إنما يسمى جذعا إذا جز رأسه، وإذا جز رأس النخلة يبست فلا تلقح ولا تورق بعد فلما لمسته اخضر في الحين.

الثالث: أن نبتت فيها أغصان وورق ورؤوس النخل إذا قطعت لا تخلف.

الرابع: أن أثمرت في الحين والنخل لا تثمر إلا بعد ريح في أيام كثيرة.

الخامس: أن صارت رطبا في الحين.

السادس: قوله{جَنِيًّا }؛ أي: حان قطافها فصلحت للجني، فإنها قد تسمى رطبا في أول نضجها قبل أن تصلح للجني على جهة المجاز، وهنا لطيفة وهي أن الله تعالى آنسها بأن أراها مثلا بالجذع اليابس حين اخضر من غير سقي وبعد يبسه اخضر وأثمر في الحين كما ولد عيسى عليه السلام من غير فحل وتكلم في الحين وتم خلقه دفعة وولد في الحين فتلك بتلك.

السابع: أن هزتها فتساقطت ومعلوم أن هز مثلها على ما هي عليه من ضعفها ونفاسها لسوق النخل لا يسقط الرطب، فإن كان أعطيت في الحين قوة تهز بها النخل فتسقط رطبها فخرق كبير وإن تساقطت الرطب للمسها إياها فخرق آخر أكبر منه.

الثامن: قوله تعالى:{فَكُلِي وَٱشۡرَبِي} فيه بشارة بسرعة الخلاص من ألمها؛ فإن النفساء لا تأكل ولا تشرب إلا بعد مدة لشغلها بألمها.

التاسع: أنه بشرها بحصول الطعام والشراب عندها؛ لأنها كانت بأرض فلاة فإن الناس يخافون عدمهما في الفلوات.

العاشر: قوله لها:{وَقَرِّي عَيۡنٗا} فعلمت بكلامه الخارق أنه لا يكذبها فأنست.

الحادي عشر: أنه علمها كيف تجيب إذا سألها قومها في قوله لها: {فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا} [مريم: ٢٦]، ألا ترى إلى طمأنينتها إلى مبارأة ولدها كيف أتت به قومها تحمله ظاهرا لهم وقد كادت تفر به إلى بلد آخر أو تخفيه ما استطاعت فلا يشعر به قومها فلما طابت نفسها به في إقامة حجتها عند قومها أتتهم به تحمله ظاهرا لهم.

فهذه رحمك الله سبعة أحوال ثوبها ربها عليها بثمانية عشر حالا سبعة منها قبل الهز وأحد عشر بعده كلها تتضمن من البسط والأنس والكرامات ما يدل على رفعة شأنها وعزة مكانها عند ربها فكيف تبخس هذه الصديقة في حقها وتحط عن مقامها في الهز، ويعضد ما رمناه من علو المقام لها في ذلك الوقت صحة الشبه في قوله تعالى لأيوب عليه السلام{ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾} [ص: ٤٢]؛

أراد الله تعالى أن يريه عاقبة صبره وبركة تصرفه وفائدة ركضه وثمرة لمسه الأرض بأخمصيه، ومعلوم أن المياه لا تنبع بسبب الركض على مجرى العادة، وأن الركض يخرج مخرج الهز خرفا بحرف، وكذلك قوله تعالى لموسى عليه السلام:{أَضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ} [البقرة: ٦٠]، أراد الله تعالى أن ينبع له الماء بواسطة الضرب حتى تظهر كرامته عند بني إسرائيل، وكذلك في البحر حين ضربه فانفلق، وكذلك عيسى عليه السلام كان يركض القبور فيحيي الله به الموتى ويلمس الطين فيصير طائرا بإذن الله تعالى، وكذلك نبينا عليه الصلاة السلام لمس الماء فنبع من بين أصابعه ولمس الطعام فنما وزيد فيه، وتفل في بئر فعذبت وكثر ماؤها، وتفل في عين علي كرم الله وجهه فبرأت من داء الرمد.

وشربت أم أيمن بوله فبرأت من داء البطن، وتفل على رجل أبي بكر الصديق ☺ في الغار حين لسعته العقرب فبرئ في الحين؛ فليت شعري ما الذي أغفل أولئك الجلة عن هذه الأدلة حتى يغضوا من مقام مريم عليها السلام بالهز وهو الأعلى كما ترى أيها اللبيب الفطن المتناصف.

فإن قيل: إنما كانت تلك الأفعال منهم على سبيل إظهار المعجزة لكونهم أنبياء ومريم عليها السلام لم تكن نبية.

قلنا: ليس الأمر كذلك بدليل أنهم لو تحدوا بتلك الخروق من غير تناول منهم لها فوقعت على وفق تحديهم بها لصحت المعجزة، وإذا صحت المعجزة دون التناول باللمس والضرب علم أن تلك الأفعال وقعت إكراما لهم زائدا على ثبوت المعجزة وأيضا فإن اللمس والضرب والتفل ليس من قبيل المعجزات فإنه معتاد والمعتاد لا

يكون معجزة؛ فهذا هذا ومن اعترض من المقلدة بالجزاف فعليه الدليل ولا دليل فإن القوم الذين قالوا ذلك لم يأتوا بدليل سوى ما نقرره من أن التوكل فوق الكسب، وهذه مسألة قد حفيت فيها الأقدام واضطربت الأفهام والأظهر فيها أن الكسب مع التوكل إعلاء فإنه يقع بالظاهر ويبقى الباطن متوكلا فإذا تصور الجمع بين الظاهر والباطن فالكسب الحلال ممن جمع بينهما فهو إعلاء مقام لكونهما مقامين وعملين فلا منافرة بين التوكل والكسب لاختلاف المجال ومريم عليها السلام صديقة ومن بعض مقامات الصديق الجمع بين الكسب والتوكل.

وفي الكسب فائدة كثيرة فإنه مما ينفع الناس ويصلح شؤونهم ويقوم بمنافعهم في لباسهم وأقواتهم؛ فلو ترك الناس الكسب بالجملة لهلكت الأرض ومن عليها فقد تصورت فيه المنفعة العظمى، وقد جاء عنه عليه السلام أنه قال: سيد القوم خادمهم، وجاء عنه عليه السلام أنه قال: الناس عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، والمنفعة على ضربين دنيوية وأخروية:

فالأخروية إرشاد المكلف وتعليمه ما يلزمه من وظائف التكليف، والدنيوية معالجة المعيشة بالأسباب العادية التي يقوم بها أود الحاجات وإبقاء رمق حياة؛ فقد انحصرت المنفعة الدنيوية في الكسب وفيه أيضا سبب للمنفعة الأخروية فإنه لولا سد الجوعة وستر العورة على مقتضى الشرع ومجرى العادة لم تكن الحياة ولا تصورت عبادة، فأهلا بالكسب وأهله فإنهم أحب الناس إلى الله تعالى وكيف يعاب الكسب أو يغض من قدره، وقد أثبته سيد الرسل لنفسه صلى الله عليه وسلم حيث قال:"**جعل رزقي تحت ظل رمحي** - يعني ما يأكل

من الغنائم بسبب الكسب بالرمح، وما فوق مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام، وأمر الله تعالى داوود عليه السلام بالكسب حيث قال له:{ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ} [سبأ: ١١]؛ يعني سابغات الدروع؛ ولذلك أخبر أن داوود عليه السلام كان يأكل من كسبه في عمل الدروع.

وكذلك جاء في الأثر أن سليمان عليه السلام كان يأكل من عمل الخوص، وجاء عنه أنه قال: اطلبوا الرزق في خبايا الأرض يعني فيما يزرع، وقال لصاحب الناقة اعقلها وتوكل.

وهذه الأخبار تدل على إثبات الكسب شرعا وأنه لا يقدح في التوكل، فخرج من هذه الأحاديث إثبات الكسب شرعا، وأن مريم عليها السلام كان مقامها في تلك الحالة إعلاء لكونها جمعت بين الكسب والتوكل [1].

يؤخذ من قصة مريم ما يلي:

أولا: مشروعية الاستعاذة؛ أي: قول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ ووجه ذلك قوله تعالى على لسان أم مريم عليها السلام: {وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ } [آل عمران: ٣٦].

وعن ابن عباس ☺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**"لو أن أحدكم أراد أن يأتي أهله فقال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن قدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبدا** - متفق عليه.

فهذا الحديث الشريف اشتمل على توجيه من رسول الله صلى الله

(1) مظان العقبان في شماريخ ثهلان من كتاب تنزيه الأنبياء.

عليه وسلم لأمته في أدب من الآداب المتعلقة بالجماع؛ بين فيه النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأمر، وهذه السنة النبوية التي من حافظ عليها؛ فقد حفظ حق ولده من بعده، كما حفظت أم مريم، مريم عليها السلام بقولها:{وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ } [آل عمران: ٣٦]، فأرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذكر الله سبحانه وتعالى عند إرادة الجماع، وهذا الهدي من رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتبره بعض العلماء رحمهم الله تعالى من الإحسان للولد؛ ذلك أن الوالدين يحسنين إلى الولد قبل وجوده؛ وذلك حينما يختار الأب زوجة صالحة، وأما تخاف الله وتتقيه، فيكون قد أحسن إلى ولده أكرم الإحسان، ثم بعد ذلك إذا قدر له أن ينكح هذه المرأة ويتزوجها فإنه يحرض على اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم في إتيانه لأهله، فإذا حرص على ذلك، وذكر هذا الهدي من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أخبر رسول الهدى صلى الله عليه وسلم أنه حرز من الله تعالى، وحصن حصين من ملك الملوك سبحانه وتعالى لمن ذكر اسمه عند إرادة الجماع للولد والذرية، فأرشد صلى الله عليه وسلم إلى هذا الخير العظيم، وكان بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه لا يترك باب خير إلا دلنا عليه، ولا سبيل رشد إلا هدانا إليه، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وجزاه عنا وعن أمته خير ما جزى نبيا عن نبوته وصاحب رسالة عن رسالته.

هذه السنة (قول: بسم الله) تكون قبل الابتداء بالجماع، وذلك لأن حال الجماع حال لا يناسب الذكر، ومن هنا يقدم ذكر الله عز وجل قبل إصابة المرأة.

وقوله: بسم الله؛ هذا الاسم العظيم الذي شهد الله جل جلاله أنه

عظيم البركة، ما كان في قليل إلا كثره ولا يسير إلا باركه{تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾} [الرحمن: ٧٨]؛ فهو الاسم العظيم الذي قامت عليه السماوات والأرض، بسم الله التي ينخس عندها عدو الله، بسم الله التي تطيب بها الأشياء، ويحل به البركة.

وهذا القول من ذكر الله عز وجل إنما يكون بليغا عظيم الأثر عظيم النفع عظيم العاقبة إذا كان الإنسان يذكره مستحضر القلب، قوي الإيمان بالرب، متعلقا به سبحانه وتعالى، حتى عند شهوته؛ إذا بالإسلام يهذبه ويقومه ويسدده ويرشده إلى ما فيه صلاح دينه ودنياه وآخرته. إنه الإسلام الذي يعيش مع المسلم حتى في فراشه، وحتى في إتيانه لأهله{ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا} [المائدة: ٣]، فما بقي أمر من أمور المسلم إلا وله باب من أبواب العبادة، وباب من أبواب القربة لله عز وجل، يأتي الغافل شهوته ويقضي وطره، وينتهي من نزوته، ولكن المؤمن الكامل في إيمانه لا يمكن أن يرى شهوة من الشهوات يستطيع أن يدخر منها حسنة للآخرة إلا جعلها نصب عينيه، وحرص كل الحرص أن يفعل شيئا يقدمه للآخرة، حتى الشهوات لو أن الإنسان قصد بإتيانه لامرأته أن يعف نفسه، وأن يعف زوجه، وأن تكون له ذرية صالحة فإنه يؤجر على ذلك، وكم من رجل دخل على زوجته وفي نيته وقرارة قلبه منذ أن يعقد عليها أنه يريد أن يبني بيتا مسلما، ويريد أن يعف نفسه بحلال الله عن حرامه، ويريد أن يحصن أمة من إماء الله عز وجل عن حرام الله تعالى فنوى هذه النية الصالحة منذ أول لحظة من دخوله، وإذا به بأجر ومثوبة من الله تعالى حتى ينتهي زواجه أو يلقى الله تعالى.

هذا من عظمة الإسلام؛ أنه يعظم بالنية، ويعظم بالشعور أنه في عبادة مع الله جل جلاله، قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون بها له أجر؟ قال:"**أرأيتم لوضعها في الحرام أكان عليه وزر** -؛ فبين النبي صلى الله عليه وسلم أمر غيبيا لا يمكن للعقول أن تدركه، ولا يمكن للناس أن يطلعوا عليه وهو ملابسة الشيطان للإنسان؛ هذه الملابسة التي تكون حتى في حال الجماع، فأبى عدو الله عليه لعائن الله أن يترك ولي الله المؤمن دون أن يؤذيه في أي أمر من أموره حتى في جماعه وإتيانه لأهله يريد أن يتلبس فيخلط الطيب بالخبيث، ويؤذيه فيما يكون منه من ولد.

وصدق الله عز وجل حينما أخبر بعداوته فإنه العدو المبين، فهنيئا ثم هنيئا لمن طيب الله ذريته، وهنيئا ثم هنيئا لمن طيب الله قوله فطابت به ذريته وطاب به عمله، وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن المؤمن إذا دخل بيته فقال: بسم الله ثم إذا أراد أن يصيب طعاما قال: بسم الله، قال الشيطان لأعوانه لا مبيت لكم ولا عشاء، فإذا دخل الرجل بيته ولم يذكر اسم الله قال أدركتم المبيت، فإذا أكل ولم يذكر اسم الله، قال: أدركتم العشاء، فإذا جامع أهله ولم يذكر اسم الله كان الشيطان معه، وهذا كله يدل على فضل الذكر، وقل أن تجد إنسانا محافظا على ذكر الله ينسى أن يذكر الله تعالى في هذا الحال، ولذلك من عود نفسه على أن يذكر الله قائما وقاعدا، مقبلا ومدبرا ذاهبا وراجعا، وعلى كل أحيانه فإن الله تعالى يعصمه ويحفظه، ويبارك له في وقته وعمره، ومن هنا بين النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا قدر الولد من هذا الجماع أنه لا يضره الشيطان، وفي هذا دليل على أن الذرية قد يضرها الشيطان، ولذلك للشيطان همز، وللشيطان مس،

وللشيطان لمز وكل ذلك نصت عليه نصوص الكتاب والسنة، والدليل فيه واضح من كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ أن الشيطان يتلبس بالإنسان وأنه يأكل من طعامه، ويشرب من شرابه، وأنه يأتي معه أهله والعياذ بالله، وهذا كله بيان وإعذار، وقد أعذر من أنذر.

فأنذرنا الله عز وجل بهذه النصوص في كتابه وسنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ حينما قال في كتابه:{وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾} [المؤمنون: ٩٧ - ٩٨]؛ فهذا يدل على عظيم الأذية والضرر من الشيطان، ومع هذا كله فكيده ضعيف إن شاء الله، ولا يمكن أن يؤذي عبدا إلا أن شاء الله تعالى؛ قال تعالى:{إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾} [المجادلة: ١٠]؛ فإذا توكل العبد على ربه عصم بعصمة الله تعالى، وحفظ بأمر الله تعالى وحماه الله عز وجل ووقاه.

ثانيا: يؤخذ من قصة مريم عليها السلام مشروعية القرعة عند النزاع، وقد أقرها شرعنا الحكيم

فالقرعة ثابتة في تمييز كل حقين متساويين لا تميز بينهما؛ وهي حكم شرعي ثبت في القرآن وفي السنة؛ في القرآن ورد في موضعين:

الأول: قوله تعالى في نبي الله يونس عليه السلام:{فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾} [الصافات: ١٤١].

الثاني: قوله تعالى:{وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [آل عمران: ٤٤].

ووردت في السنة في ستة مواضع؛ منها: أن رجلاً أعتق ستة اعبد؛

فجزأهم النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أجزاء، وأقرع بينهم ليخرج الثلث فقط [1].

ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها [2].

وقد أنكر بعض أهل العلم القرعة؛ وقالوا: إنها من الميسر، وأنها من الاستسقام بالأزلام.

وهذا قول باطل؛ ودليل بطلانه ما يلي:

أولا: ثبتت مشروعية القرعة بالكتاب والسنة.

ثانيًا: أن قاعدة الميسر دائرة بين الغنم والغرم.

فمثلاً: لو جئت بمال مشترك بين اثنين؛ ولنفرض أن هذا المال ثلاثون جنيهًا؛ فإذا قسمته قسمين؛ قسم عشرة جنيهًا، وقسم عشرون جنيهًا؛ وقلنا: سنقرع بينكما؛ فلا يجوز.

لم؟

لأن أحدهما سيصبح غارمًا والآخر غانمًا؛ وهذا يوجب العداوة والبغضاء؛ وهذا هو الميسر الذي نهى الله تعالى عنه.

أما شيئين متساويين، ولا يمكن التمييز بينهما فإننا في هذه الحالة نستعمل القرعة ولا نقول إنها ميسر لما بيناه.

---

(1) أخرجه مسلم في النذر - باب من أعتق شركاً له في عبد (1668) عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

(2) أخرجه البخاري في النكاح - باب القرعة بين النساء إذا أراد سفراً (5211)، ومسلم في الفضائل - باب فضائل عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها (2445) عن عائشة رضي الله عنها.

تمت القصة بعون الله تعالى

* * *